الطوطمية

أو تقديس الاشياء

— ٢ —

لرشوان احمد صادق

كانت القبائل التي تسكن غرب استراليا تتخذ انواعاً من النبات طوطماً لها ، وكان من المحظور قطع هذا النبات أو حصد ثماره في أوقات ومواسم معينة من السنة . كذلك كانت الحال بين بعض قبائل جنوب افريقية فقد كان محرماً عليها أكل لحم الطوطم او ارتداء جلده . وكان بعضهم يتمادى فيحجم عن النظر الى هذا الطوطم. كذلك كانت تقدّم بعض قبائل الهنود الحمر اول محصول تجمعهُ الى الحيوان الذي تعدُّهُ قبائلهم طوطماً لها ويتحرون له التضحيات المختلفة وكان سكان جزيرة صاموى يتخذون البوم طوطماً لهم فان وجد أحدهم بوماً ميتاً في الطريق جلس بجواره وأخذ يبكي ويولول وينوح ويضرب جبهته بالحجارة حتى يتفجر الدم من وجهه . ثم يكفن هذا البوم الميت ويدفن باحتفال عظيم كما لو كان بشراً . وعلى هذا جرت قبائل الوانيكا في شرق افريقية فقد كانت الضبع طوطماً لهم فان مات بكاه أهل القبيلة وزاد حزنهم عليه أكثر من حزنهم عند موت رئيس من رؤسائهم

ولم يكن انتشار الطوطمية قاصراً على تلك الاصقاع المجهولة والقبائل التي تعيش على الفطرة بل ازدهرت الطوطمية في حوض البحر الابيض المتوسط مهد المدنيات العظيمة وغيره من الاصقاع المعمورة والتي نالت قسطاً وافراً من التقدم والعمران . فقد كان اليونانيون يقدّسون الجمري فاذا وقع واحد من هذا الحيوان البحري في شباك أهل جزيرة سيرقوسه احدى الجزائر الايونية فانهم يعيدونه الى البحر ثانيةً واذ عثروا على واحد من هذا الحيوان ميتاً دفنوه ويكون كما لو كان فرداً منهم . وكان المتبع في اثينا ان كل شخص يقتل دثاً عليه ان يقوم بدفنه عن طيب خاطر[1] . وما قصص العجل ابيس والصقر والجمران والخروف والاسد وغيرها في تاريخ مصر القديم ببعيدة عن أذهاننا[2] . وما عجل السامري الذي التفّ حوله قوم موسى الا صورة من ذلك النظام الاجتماعي الذي عمّ العالم القديم . ذلك النظام هو

(1) See "Totemism & Exogamy" by J. Frazer 4 Volumes.

(2) See "Angient Times" by J. H. Breasted.

الطوطمية التي نحن بصدد الحديث عنها . هكذا ظهرت وهكذا انتشرت في حوض البحر المتوسط يوم ان كان في أوج عظمته ، يوم ان كان مصدر الافكار العظيمة والآراء الجليلة والمعتقدات السامية . وما عبادة السماء والملائكة وأرواح الآباء في الديانة الكونفوشيوسية Confucianism (وهي الأركان الثلاثة لهذه الآراء التي ذكرها وابتدعها كنفوشيوس Confucius [1] الفيلسوف الصيني) الاّ مظهراً من مظاهر الطوطمية . وما فكرة اكتساب الحياة الخالدة في الدنيا بعبادة الاولياء في مذهب الطاوية (المحرَّف عن المذهب الاصلي لهذه الفئة التي كوّنها الفيلسوف الصيني لاوتسو Lao Tsu [2]) والمذهب الطاوي) Taoism الاّ مظهراً من مظاهر الطوطمية . وما تحريم قتل الانسان والحيوان وعبادة الاصنام في التعاليم البوذية التي أنشأها جوتاما Gautama الفيلسوف الصيني [3] (والمذهب البوذي) Buddhism الاّ مظاهر من ذلك النظام الاجتماعي القديم المعروف بالطوطمية . وكذلك عبادة الظواهر الطبيعية عند الصابئين ، والنار عند المجوس

* * *

وقد اتخذ بعض هنود كليفورنيا الحمر الباز طوطماً لهم وكانوا يقيمون لهُ كل سنة حفلاً عظيماً يقتلون فيه بازاً دون أن تفقد قطرة من دمه ثم يضعونهُ في كساء من الجلد ويصنعون من ريشه رداءً مقدساً يتقلده رجل الطب . وتدفن جثة الباز بين عويل النساء وولولتهنَّ كما لو كان الميت أحد أقاربهم . وكانوا يخافون أكل لحم الطوطم خشية أن تحمل الأنثى بحيوان أو تموت إثر مرض شديد الوطأة . وكانت قبيلة الباكالاي تخاف ظهور بقع بيض على الجسد إثر أكل لحم الطوطم . كما ان القبائل التي كانت تتخذ الذرة الحمراء طوطماً لها كانت تخاف ان أكلها شخص ظهر حول فيه فرح حمر . أما جماعة الاماها فكانوا يعتقدون ان من يأكل لحم الطوطم منهم حتى ولو كان نسياً أو بغير علم فانهُ يمرض هو وزوجته وأولاده . وكان بعضهم يظن ان ذلك يؤدي الى الجنون . وكان بعض السوريين يخشون أكل السردين الذي قد يؤدي الى إصابة الجسم والساق والكبد والبطن . أما المصريون فكانوا يعتقدون ان من يشرب لبن الخنزير يصاب جسمه بالقرح . كما ان بعض القبائل كانت تقتل طوطمها اذا كان حيواناً ضارياً خشية فتكه بهم مثل الاسد . وفي هذه الحال يتحاشون الاعتذار كما كانت الحال في بلاد بتشوانا لانها في افريقية وبين بعض هنود أميركا الشمالية الحمر . فاذا حدث ان فرداً ما عضهُ أو لدغهُ طوطم القبيلة اعتبر ذلك الشخص في نظر أهل قبيلته مجرماً وان الطوطم قد

---

(١) ... كونفوشيوس سنة ٥٥١ قبل الميلاد (٢) ولد لاوتسو Lao Tsu قبل كونفوشيوس بخمسين عاماً (٣) ولد جوتاما Gautama سنة ٥٦٠ ق . م . وبعد البوذية كان في الهند ثم انتقل الى الصين

انتقم منهُ بعمله هذا فيطرد ذلك الفرد من القبيلة في الحال . وهذا يوضح لنا ما كان للطوطم من المركز القانوني في القبائل قبل ظهور القوانين التي جاءت نتيجة لانتشار المدنية والحرية. ويقول الاستاذ الدكتور ايفانز بريتشارد والاستاذ سلجمان [1] ان الدجاجة كانت تتخذ بين قبائل الازندي في أعالي النيل حكماً على المجرم فكانت تعطى الدجاجة مادة سامة وتسأل عن المجرم المشتبه فيه فان ماتت ثبت إجرامه وإلاَّ فلا ويسمي الاستاذ بريتشارد هذه الطريقة باسم بنج Benge ويسميها الاستاذ سلجمان poison wood ordeal . ويقول الاستاذ سلجمان ان انتشار الطوطمية بين الازندي (في وسط افريقية) يتمثل في فكرة انتقال الروح بعد موت الفرد الى طوطم القبيلة بينما يذهب فرع منها الى القبر حيث يبقى ردحاً من الزمن ثم ينتقل الى مجرى مائي حيث ينعم ببقائه مع أرواح أجداده كما ان القبائل التي تتخذ الحية طوطماً لها كانت تستخدم هذا الطوطم في منصب قضائي فان عثروا على مجرم اشتبهوا في أمره فانهم يلقون حية بقماش وينادى بالرجل المشتبه في إجرامه ويؤمر بوضع يده داخل الكساء الموضوعة به الحية فان لدغته دلَّ ذلك على صحة إجرامه، وإلاَّ فلا جناح عليه . وان وجدوا حية ميتة أحرقت باحتفال عظيم كما لو كان الميت ينتمي الى أسرة عريقة . وهناك قبائل كانت تقسم على الطوطم الذي كانت تقدسه ، فبعض العشائر تقسم بالتمساح في بشوانا لاند وفي مقاطعة البنغال في بلاد الهند كانت بعض العشائر تتخذ النمر طوطماً لها فيقسمون على جلده . وكثيراً ما نسمع في عصرنا هذا عن الاستعانة بالكلاب البوليسية لكشف الجرائم

على ان تلك القبائل كانت ترى ان لا بدَّ للطوطم من أن يسدي خدمات الى أهل قبيلته توازي ما يلاقيه من احترام وتقديس . فقبيلة الأوفيجين في آسا الصغرى كانت تعتقد بشفاء من لدغة ثعبان بوضع ثعبان على الجرح فعند ذلك يمتص الطوطم السم فيزول الالتهابات والآلام . كما ان رجال الطب في قبيلة الامانها كانوا يستخدمون الطوطم الفردي لهذا الغرض فكانوا يقلدون صوت الطوطم الشخصي وفعله للمريض ويعتقدون ان في ذلك شفاءه . ولعلَّ تخويف الاطفال بأصوات الحيوانات من بقايا ذلك النظام الاجتماعي القديم . كذلك نطالع في سنغامبيا كان رجال الطب يتخذون من لدغة حية مجرد سبب إذ لان الحية طوطمهم ويستدل بالآثار القديمة [2] على ان القبائل التي كانت تتخذ الثعبان طوطماً لها كانت تعمل مثل

---

1 — [illegible] Nilotic Sudan [illegible] Prof. S. Egmont

2 — [illegible]

هذا العمل في افريقية وقبرص وايطاليا . كذلك الحال في بعض العشائر التي تنتمي الى قبيلة الاماها فقد كانوا يتخذون صغار الطيور طوطماً لهم ، وكان محرماً عليهم أن يأكلوها

ومع ذلك قد كانوا يخالفون هذه القاعدة في حالة مرض أحدهم اذ يصرح للمريض ان يتناول صغار طيور البراري ليتم شفاؤه . اما قبائل الصامرى الذين كانوا يتخذون نهاية اوراق الاشجار طوطماً لهم وكانوا يحرّمون قطع هذه الاوراق فكان مرخصاً لهم بل ان شئت قل محتماً عليهم ان يستخدموا وريقات شجر النارجيل او جوز الهند كروحة يجلبون بها الهواء للمريض . وبعض عشائر صامرى كانت تقدّس النباتات البحرية وكانوا يلقون هذه النباتات في الماء أيام الحرب لإفساد حرب العدو وعرقلة انتصاراته فاذا ما همّ العدو بإلتقاطها غطست في الماء ثانيةً ولكنها سرعان ما تعود فتطفو فوق سطح الماء بمجرد مرور بعض تلك النباتات فوقها . وهذا يشبه كثيراً الأعشاب التي كان القدماء يستخدمونها في السحر للعرقلة والتي لا تزال بقاياها في المجتمعات الحديثة . وربما أشبهت هذه الفكرة الالغام العائمة في الحروب الحديثة . كذلك استخدم الطوطم في الدعوذة فهو ينبىء اخوانه ومواطنيه بما سيحلّ بهم من خطر داهم . ففي ويلز الجديدة الاسترالية كانت بعض قبائل السكان القدماء تعتقد ان حيوان القنفر يحيطهم علماً بما سيتعرضون له من اخطار . كذلك كان الحال في قبائل كراناي في فكتوريا الاسترالية فانهم كانوا يتخذون الغراب طوطماً لهم فاذا نعق كان ذلك في منزلة انذار بخطر قادم وما زال القوم بمصر يقرنون نعيق الغراب بحلول ضيف قادم من سفر ويمكن مقارنة ذلك بصفارات الانذار في الحروب الحالية . وجميعها ترمي الى الاصطلاح على صوت يقرر حلول خطر بالبلاد أو حلول جديد أو غريب . أما قبائل الصامرى وكانوا يتخذون البوم طوطماً لهم فان تقدّمهم بوم في اثناء خروجهم للحرب استبشروا بالنصر أما إذا حلّق خلفهم أو طار في خط يتقاطع مع خط سيرهم فالحرب فاشلة لا محالة . وعند ذلك يعدلون عن شنها . ولهذا السبب كانوا يربون البوم في منازلهم . ولا تزال تسمع في مصر انواع التشاؤم المختلفة عند سماع صوت البوم فهو نذير الخراب أو الموت . فهو طير مكروه بين أغلبية المصريين . وكان بعض أفراد هذه العشائر يعتقد أن مجرد ظهور البوم على سطح المنزل إنذار بموت أحد أفراد الأسرة وانه ما جاء الا ليبحث عن صاحبه ليحمل روحه . ويجب ان نلاحظ أن هذه الفكرة تختلف عن فكرة المصريين فالعقيدة في مصر ترجع الى ان البوم يأوي الى الخرائب . ولذا يعدّ بعض المصريين ظهور البوم على سطح منزل شؤماً إذ يموت أحد أفراد المنزل سيتحوّل المنزل الى مكان خرب أو سيهجر لغياب هذا العزيز عنه . وكان بعض قبائل القدماء يعتقد في النمر والثعبان والسمك نفس الاعتقاد . وفي البلاد المصرية

اذا ظهر برص في منزل وجه اليه بعض القوم التفاتاً يستدل منها على تشاؤمهم منه

أما فيما يختص بالاجسام السماوية والظواهر الطبيعية كالشمس والقمر والرعد والبرق وغيرها فلم نسمع انها اتخذت طواطم في يوم ما ولكنها كانت موضع احترام وتقديس في جهات عديدة في العالم القديم

أما الأدوات الصناعية والنماذج الفنية فلا نعرف منها إلاّ نماذج قليلة اتخذت طواطم. مثال ذلك: الخيمة والشبكة وبعض المباني. وقد تطورت الأخيرة الى إقامة المعابد والمقابر والصوامع والكنائس والمساجد ولكن الفكرة تغيرت بمعرفة الحق جلّ جلاله

وكان السائد في تلك الأيام الخالية وبين تلك القبائل الساذجة أن الفرد عليه أن يحاكي الطوطم ما أمكنه سواء في الملبس والشكل وغير ذلك حتى يحوز رضاء طوطمه. فتراه يلبس فروةً من فراء الطوطم. ويعمل على محاكاة الحيوان في جسده فينظم شعره على نحو نظام شعر الطوطم. ويظهر ان صناعة الحلي على شكل حيوانات وعمل التماثيل ونماذج الحيوانات وتشبيه جسم الانسان بغصن البان وأعضائه بالزهور المختلفة وتحلي نساء ورجال أواسط افريقية بريش الطيور ووضع ريشة في قبعات الاوربيات ورسم الحيوانات والمناظر على اليد والذراع ورسم الصليب على أيدي بعض الأفراد وتحلي الرجال في القبائل الهمجية بجلود الحيوان واستعمال الفرو حديثاً، كل هذه بقايا من تلك المظاهر القديمة غير أنها تخالفها في تطور الفكرة. أما في القبائل الساذجة فكانت الفكرة ترمي الى تمثيل الطوطم مع الفرد على الدوام في حركاته وسكناته وسفره واقامته في حين ان هنود أميركا الحمر كانوا يعملون مثل تلك الاعمال لاعتقادهم ان بجسم كل فردٍ منهم حيواناً أو طائراً من هذه الطواطم مثل الثور الاميركي والعجل والسلحفاة والضفدع وغيرها من الحيوانات والطيور التي كثيراً ما كانت تمثل على أجسامهم بطريق الرسم أو الوشم تبركاً وتيمناً بهذا الطوطم. وقد يكون ذلك لبيان الفروق الادارية والسياسية بين القبائل المختلفة. فمعرفة الطوطم قد توضح القبيلة التي ينتمي اليها الفرد

نعم لقد أتى على الانسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ولكن الله سبحانه وتعالى هداه السبيل وظهرت المعتقدات الدينية القويمة فتمسك الانسان بمعظمها وأخذ في أسباب الرقي وطريق الحضارة ونبذ القديم من خرافات وخزعبلات لا ترتكز على أسس ولا قواعد. ومع ذلك كله ما زالت الطوطمية (ذلك النظام الاجتماعي القديم) ممثلة في كثير من المجتمعات وان شئت فقل في العالم أجمع ممثلة سرّاً لا جهراً مستترة في زوايا المجتمعات البشرية وليست واضحة جلية بل قد تكلفنا عناء البحث والتنقيب للاستدلال عليها والوقوف على مظاهرها وأشكالها ومدى تأثيرها والتأثر بها

فما زلنا نسمع بتقديس البقرة في بلاد الهند[1] وكثيراً ما تقوم المنازعات والمذابح بين الهندوس سكان بلاد الهند على أثر قتل بقرة . وما زلنا نرى الورد والرياحين والزهور المختلفة وسعف النخل تهدى الى الاحياء وتنقل الى مقابر الاموات وإن تمتع الحيُّ بمنظرها ورائحتها الطيبة فلا ندري ماذا يكتسب منها الميت وقد اختفى من الوجود المحسوس . لقد سمعت من كثيرين انها تجلب الرحمة . وفي مصر كثير من النباتات ينالها شيء من التقديس مثال ذلك البصل الاخضر في عيد شم النسيم حيث يحتم على كل فرد أن يضع بصلة فوق رأسه

ولمعتقد العامة من الشعب ، سواء أخذت بأسباب الحضارة أم لم تأخذ بها ، فيما يسمونه « الشمامة » وهي روح طاهرة تزورهم في الليل فتمتدح النظيف منهم . وهكذا يأكلون الحمص والحمص الاخضر (المعروف بالملانة) ويجهزون الورد والبصل لهذا الغرض

وفي ليلة عيد الشعانين — وقد كان يحتفل بها قديماً في البلاد المصرية[2] أما الآن فقد تقاص هذا الاحتفال ولم يبق إلا اسمه فقط — في هذه الليلة يفضل كثير من المصريين على القلقاس ثم الاستحمام بنبات « الزعرع » المنسوب الى النبي أيوب ، فأمره معروف لا يكاد يجهله أحد من المصريين . هذا فيما يختص بالنبات ، أما عن اتخاذ الحيوان طوطماً فلا تزال بقاياه في خبايا المجتمع المصري الى وقتنا هذا فكثيراً ما ترى السلحفاة مع الاطفال . كذلك الحال مع الحمام والكلاب . وتنال تلك الحيوانات والطيور عناية كبيرة وتبذل الاسرة خصوصاً والدة الطفل جهدها في درء الاذى عنها

وتعتقد بعض السيدات من العامة انه اذا طارت ذبابة في مساء يوم الخميس فمعناه روح أحد الموتى اشتاقت الى أهلها فجاءتهم على شكل ذبابة لتطوف بهم وتعلم شيئاً عن أحوالهم ولذلك يحرم قتلها او إيذاؤها أي أذى بها فيترحمن على الميت ويغالي بعضهن فيتوجهن الى زيارة المقابر في صباح الجمعة . أما التفاؤل ببعض الحيوانات والتشاؤم ببعضها فأمر لا يتسع المجال للتحدث عنه . كما ان بعض الحشرات تنال شيئاً من الاحترام في المجتمع المصري فاذا سقط الخبز على الارض رُفع وقبّل . كذلك الارز . ولا يمكن ان ألقيت على الارض فالمرور عليها أمر غير مرغوب فيه كما ان بعض الحيوانات والحشرات كحب البركة والبخور قيمتها في المجتمع المصري

---

(1) See "Sacrificial Cannibalism of Hindoos and Egyptians" Asiatic Journal.

(2) يستفاد من سرد الخبر الذي رواه المسعودي في الجزء الرابع ص ٢١٢ فقد وصف الاحتفال بعيد الشعانين في مصر حيث ذكر المسعودي انه حضر الاحتفال بليلة الشعانين في مصر في ولاية محمد بن طغج الاخشيد